لاول مرة يشتهي ان يرى السماء مغطاة بالغيوم . خمسون سنة قضاها وهو لا يدري ان السماء الزرقاء تحمل له كل هذه المفاجأة .. وقد تؤدي الى هلاكه .

وأحس الرجل بوطأة الشمس فأخرج منديله وعقد رقبته . منذ قليل كان قد تخلص من سترته فرماها ارضا وتابع سيره . أحس عندئذ بالثقل ينزاح عن جانب من ظهره . وتطع حوله فاذا كل شيء يشير الى نهايته المحتومة . ابدا ، لم يخطر بباله ان الصحراء دنيا يمتزج فيها السحر ، سحر الحياة الفسيحة اللانهائية ، وقسوتها معا .

وفتش الرجل عن وسيلة تنقذه من مصيره فلم يوفق . وراحت عيناه تبحثان عن معالم قرية او اي شيء يدل على وجود بشر ، على بعد معين منه ، ولكنهما ارتدتا اليه خائبتين وقد مات الامل فيهما ومات كل رجاء .

وفتش الرجل عن وسيلة تنقذه من مصيره فلم يوفق . وراحت عيناه تبحثان عن معالم قرية او اي شيء يدل على وجود بشر ، على بعد معين منه ، ولكنهما ارتدتا اليه خائبتين وقد مات الامل فيهما وانطفأ كل رجاء .

سار يمينا ويسارا . سار الى الامام والى الوراء ، ولكن دون جدوى .. وخسر ساعتين بلا مقابل .

سيارته السوداء الصغيرة التي خلفها في جبهة ما ، كانت ما تزال تبدو لعينيه . ان ظهرها يتوهج تحت أشعة الشمس . الشمس محرقة ، محرقة . انه يحس بها وكأنها جالسة تستريح فوق رأسه ..

وبدأت انفاس الرجل تتلاحق كقطيع من الحيوانات اصابها الذعر والتعب . وراح يلهث بصوت مسموع .

اين ؟ اين تقع دنيا الناس الذين ينعمون بالماء والظلال الوارفة ؟

دارت عيناه في كل الجهات وبحثتا عن معالم كائنات مثله . ولكن ، لا شيء ينم عن وجود مثل هذه الدنيا على سطح الارض .

وتطلع الرجل الى السماء فاذا هي شديدة الزرقة . الشمس لا تستريح فوق رقبته ، ولكن الوقت ما زال مبكرا حتى تنحرف . الساعة الثانية تماما . والامل ضعيف بنجاته من قسوة هذا العالم الرحب الذي ضل فيه ..

قواه بدأت تخور . سيارته التي تعطلت عن السير ما تزال تلوح لعينيه من بعيد كصرصار اسود لامع يدب على وجه الارض بحذر شديد. هل يعود الى سيارته ؟

وبدأت شجاعة الرجل تخونه . كانت شجاعته تتسرب من عينيه وانفه وقدميه . يداه فقط كانتا تحتفظان بقوتهما . سوف يخلع بهما قميصه . قميصه ثقيل جدا . رأسه ثقيلة ايضا .

ونزع الرجل قميصه بعصبية عشوائية .. ثم تابع سيره وهو يفكر : لماذا لا ينزع رأسه ويرمي بكل اثقاله جانبا .. دفعة واحدة ؟!

ضجت في حلقه ضحكة . ولكنه خنقها بشدة وعلى الفور . وعندما تصور نفسه بعد ساعة .. ساعتين .. سنة .. اخذت الضجة في حلقه بالخفوت ، وتحولت تدريجيا الى نغم جنائزي : كهذه الدودة الصفراء التي تلوت تحت بصره وهي تتوارى خلف كومة من تراب .. مصيره . ستنبت في جسده مئات كهذه الدودة . سيتحول الى دود يدب على ارض الصحراء . أليس مؤسفا للغاية ان يلقى مصيره المقرف على مرأى من سمائه ؟ من سمائه الزرقاء الصافية التي طالما أحبها .. نشد رؤيتها ؟

وتجهم وجهه من شدة الالم ...

انه لا يحب الوجوه المتجهمة التي لا تثق بالمستقبل وتختفي وراء ملامحها القلق واليأس . ولكنه الان فقط يشعر بانه كان يظلم تلك الوجوه .. فانقلبت كراهيته لها حبا جارفا ، وتمنى ان تحيط به من كل جانب . انه الان واحدة من تلك المآسي التي تتبدى وجوهها متجهمة ولا تعرف غير القلق واليأس والموت .

وراح الرجل يلهث كقطار نفد وقوده وهو يقطع طريقا جبلية . وأحس بانه ضعيف .. ضعيف جدا . لكم خيل اليه انه اقوى من القوة نفسها .. هناك ، في المدينة ، حيث يمارس سلطته على الاخرين!

عندئذ ، تراءت لعينيه صور شتى من مدينته . وشاهد افواه الناس من حوله تتسع لتلعنه في صوت واحد : يا ايها المرابي القذر . انك ستموت في ذات يوم . ستموت ككلب ضال .

قبل الان لم يفكر بموت الكلاب الضالة .. فما أشقاها اذن عندما تموت !

ورفع الرجل عينيه الى السماء فوجدها لامعة كعين كبيرة غاضبة. الشمس لم تعد محرقة ، ولكن قواه تبددت تماما . يداه ايضا لم تقدرا على الحركة . كل شيء حوله كان يشده الى الارض ..

فتهالك على الرمال الصفراء الازلية واسند رأسه الى ساعده . لم تعد تتراءى لعينيه صور مدينته .. ولا الافواه المليئة باللعنات . حتى الصرصار الاسود اللامع كان قد اختفى في مكان ما .

ونام بضع ساعات ..

حشرة صغيرة دبت فوق جفنه وايقظته . لم يفتح الرجل عينيه . تمنى ان يكون في حلم ! ولكنه عندما تلمس بطريقة لا شعورية قواه ووجدها كاملة ، لم يعد الامر على جانب كبير من الخطورة . المهم عنده هو ان تحمله قدماه الى أبعد مسافة ممكنة .. وحتى يعثر على دنيا الناس الذين ينعمون بالماء والظلال الوارفة ..

ولن تخذله قدماه ..

عندئذ هب واقفا . فتح عينيه وعب بهما دنياه الجديدة . يا للهول والحيرة . الى اين يمضي ؟

الطريق لم تكن واضحة . أنفاس النجوم الضئيلة لا تقوى على اختراق حجب الظلام الكثيفة . ترى هل تغطي الغيوم وجه السماء بعد فوات الاوان ؟

أحس الرجل بيد قوية تقبض على قلبه ، فجلس ثانية على الرمال وحاول النوم : غدا ستعود الى السماء زرقتها من جديد .. وستكون الشمس محرقة ، محرقة ..

وتشابكت امام عينيه ألوف الديدان الدقيقة الصفراء .. تدب على وجه الارض ..

**اسكندر لوقا**